الزهـــد

اعراض أم ايثار

بقلم الشيخ مرتضى المطهري ـ طهران ترجمة الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي ـ قم

من فلسفة الزهد : الايثار ، وهو ضد الاثرة ، وهي كما في اللغة : الاستبداد بالانفراد بالتفضل على الاخرين ، وتقديم النفس ومصالحها ومنافعها على غيرها ، وبعبارة أخرى : تخصيص كل شيء بالنفس ومنع الاخرين منها . أما الايثار : فهو على العكس تماماً ، أي : تقديم الغير على النفس والتعب والعناء في سبيل راحة الاخرين .

فالزاهد ـ اذن ـ انما يختار العيش بكل بساطة وقناعة ويضيق على نفسه في الحياة ، من أجل راحة الاخرين وانما يهب ماله للفقراء ، لانه انما يلتذ بنعم الحياة حينمالايرى معه فقيراً ينام بلاعشاء فهويلتذ باعطاء الاخرين واطعامهم واكسائهم أكثر من راحة نفسه وطعامها وكسائها، فهوـ اذن ـ انما يتحمل الجوع والحرمان والعناء من أجل أن يعيش الاخرون في راحة وهناء ، وهذا هو الايثار .

والايثار : من أعظم مظاهر الجلال والجمال والكمال الانساني المأمول ، وانما يستطيع الصعود الى هذه القمة الشامخة من العمل الصالح ، أناس عظماء ، من أمثال علي والزهراء وابنيهما السبطين الحسنين أصحاب الكساء ، والذين نزلت في حقهم (سورة هل أتى) مرآة صافية باقية تعكس للاجيال المتعاقبة ذلك الكمال المتمثل في هؤلاء العظماء الذين «يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا» وهم يقولون «انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا» وقد نالوا بهذا الايثار أكمل الكرم والسخاء والجود اذ بذلوا ذلك الميسور من أقراص الشعير ، مع عسرهم

www.noormags.com

الشديد ولم يراعوا في ذلك القريب والبعيد فأعطوا الاسير كما أعطوا اليتيم والمسكين ولذلك دوى صدى هذا العمل الصالح من هؤلاء العظماء في السماء ، حتى نزل في حقهم قرآن يتلى كل صباح ومساء .

ودخل الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم على ابنته فاطمة الزهراء سلام الله عليها فرأى على باب بيتها ستاراً وعلى يديها معاضد من فضة ، فانكر ذلك بوجهه حتى عرفته منه ، فلما رجع خلعت الستار وشدت فيه المعاضد وبعثت بها الى أبيها رسول الله ليفعل بها ما يشاء ، وفرح رسول الله بذلك وقال : فعلت . فداها أبوها !

وكانت تقوم في محرابها اربها ، حتى تورم قدماها ، وهي تدعوا لجيرانها ، فسألها ابنها الحسن يوماً : أماه مالي أراك تدعين لجيراننا ولا تدعين لنا ؟ فقالت : الجار ثم الدار .

ويصف القرآن الكرم : أنصار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مدينته الطيبة فيقول : (ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) .

والامام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام يصف المتقين في خطبته لهمام فيقول (نفسه منه في عناء ، والناس منه في راحة) .

وبما أن فلسفة الزهد ـ كما بينا ـ مبنية على الايثار ، والأيثار يختلف باختلاف الازمنة والامكنة، فكذلك الزهد يختلف هذا الأختلاف على اختلاف الزمان والمكان، فان الايثار في مجتمع فقير كالمدينة على عهد الرسول (ص) يشتد أكثر منه في نفسها على عهد حفيده الامام الصادق عليه السلام ، ولعل هذا هو سر اختلاف السيرتين : علي ورسوله الله في جانب ، وأبناؤهما الائمة الاطهار في جانب آخر .

ان زهد هؤلاء العظماء ، كان قائماً على فلسفة الايثار ، وان الزهد الذي يبتني على فلسفة الايثار ، ليس من الرهبنة في شيء ، بل هو عظمة انسانية فذة ، نابعة من أسمى العواطف الانسانية ، وتنتج أقوى الروابط الاجتماعية على الاطلاق .

www.noormags.com

الزهد والمواساة :

ومن فلسفة الزهد : مواساة المحرومين ومشاركتهم في حياتهم ، فان هؤلاء حينما يقيسون أنفسهم بأمثالهم من بني الانسان ، وهم أغنياء ، يحسون في قرارة نفوسهم بالفقر والحرمان من ناحية،وتأخرهم عن أمثالهم من الناس من ناحية أخرى، ولا يستطيع الانسان بطبيعته الاولى أن يتحمل هذا الشعور بالاحتقار ، وهذا الاحساس البغيض،وحينئذ يحس الزاهد بمسؤلية ملقاة على عاتقه، تثقل كاهله أمام هذا الواقع السيىء ، فهو يشعر في قرارة نفسه الصافية بنداء الوجدان والضمير الانساني الحي الذي عبر الامام أمير المؤمنين عليه السلام عنه فقال : (أما والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظمة ظالم ، ولاسغب مظلوم) ، فيشعر بمسؤليته تجاه هذا الواقع السيىء وفاء بما أخذ الله عليه، وما عاهد هو عليه الله يوم اذآمن بالله وكتبه ورسله. واذ لم يستطع ذلك بيد أو لسان،فلا أقل من الايثار ومقاسمة ما عنده لهؤلاء الفقراء المعوزين ، سعياً وراء سعادتهم ، وترميم واقعهم السيىء ــ كما فعل ذلك ثلاثة من أئمتنا : الحسن والحسين وعلي بن الحسين عليهم السلام ــ . واذ لم يستطع ذلك أيضاً لكثرة الضحايا في هذا الميدان ، فلا أقل من أن يضمد جراح هؤلاء الضحايا ، ضحايا قسوة المجتمع الظالم ــ ببلسم المواساة ، ومشاركتهم في آلامهم، وهمومهم وغمومهم ، والتساوي معهم في حياتهم الفقيرة .

ولايخفى ما لهذه المواساة ، والمساواة من الاهمية ، خصوصاً في حياة أئمة الامة ، أولئك الذين تنظر اليهم الامة ، لتقتدي بأفعالهم وأقوالهم ، ولذلك نرى علياً عليه الصلاة والسلام قد زهد في حياته في الخلافة أكثر من أي وقت مضى ، وكان يقول في ذلك في جواب عاصم بن زياد ، حينما أنكر عليه بعض أحواله فقال : (يا أمير المؤمنين . .هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك)،فقال عليه السلام (ويحك اني لست كانت ، ان الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة

www.noormags.com

الناس ، كيلا يتبيغ بالفقير فقره) أي يهيج به ألم الفقر فيهلكه (١) .

ويقول في كتابه الى عامله على البصرة (عثمان بن حنيف) : (أأقنع من نفسي بأن يقال لي : أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش . . . ولو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القز،ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي الى تخير الاطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة : من لا طمع له في القرص ، ولاعهد له بالشبع أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى ، وأكباد حرى أو اكون كما قال القائل :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن الى القد (٢)

نعم ، كان علي عليه السلام هكذا ، ولكنه كان اذا سمع برجل يضيق على نفسه هكذاكان ينكرعليه ذلك فقد شكى العلاء ابن زياد اليه آخاه عاصم بن زياد فقال(ع) : وماله ؟ قال : لبس العباءة وتخلى عن الدنيا، قال: علي به . فلما جاء قال له: (ياعدي نفسه لقد استهام بك الخبيث أما رحمت أهلك وولدك ؟ أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها ؟ أنت أهون على الله من ذلك فلما سأله عن حاله عليه السلام أجابه بما سلف آنفاً .

وفي أصول الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال : (ان الله جعلني اماماً لخلقه ، ففرض علي التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي وملبسي، كضعفاء الناس ، كي يقتدي الفقير بفقري، ولا يطغي الغني غناه) (٣) .

وقال رجل لابي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : (أصلحك الله ذكرت أن علي بن أبي‌طالب عليه‌السلام كان يلبس الخشن، والقميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك ونرى عليك اللباس الجديد؟ فقال له: ان علي بن أبي‌طالب عليه‌السلام كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر عليه ، ولو لبس مثل ذلك اليوم شهر به) .

---

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٨٨ محمد عبدة .

(٢) نهج البلاغة ج ٣ ص ٧٢ محمد عبدة .

(٣) ج ١ ط آخوندى .

www.noormags.com

ونقرأ في حياة المرحوم السيد الوحيد استاذ الفقهاء محمد باقر البهبهاني «ره» . أنه رأى ذات يوم زوجة أحد أبنائه، وعليها ألوان من ملابس الأشراف يومئذ فأنكر ذلك على زوجها السيد (محمد اسماعيل) ، ـ ولده ـ فتلى عليه هذه الاية :

«قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة» .

فقال المرحوم : اني لا أقول انها محرمة ، فلا رهبانية في الاسلام ، ولكني أقول بما أنا من علماء هذه الامة وقادتهم ، فعلينا مسؤولية خاصة تجاههم وان الفقراء يتألمون حينما يرون نعمة الاغنياء ، ومواساتنا الوحيدة لهم أن نكون على مستواهم فيقولون ان السيد معنا ، فان نحن انعزلنا عنهم الى صفوف الاغنياء ، فقدوا من يواسيهم آلامهم ، فأقول : نحن اذ لا نستطيع أن نغير حالتهم ، فلا أقل من أن نسعهم بالمواساة)

اذن : فهذا الزهد الناتج عن فلسفة المواساة ـ كما ترى بوضوح ـ لا يتصل بالرهبنة بشيء ، وليس ـ كما يقولون ـ فراراً عن المسؤولية واعراضاً عن الدين ، بل هي المواساة لآلام المجتمع .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامی

www.noormags.com